## كلمة التحرير

ثمّة أمران في حياة البشرية اتخذا منذ عهد أبي البشر آدم عليه السلام موضع الصدارة في اهتمامات الإنسان هما: "المعرفة والخلاص". أما المعرفة فهي الوصول إلى تصور المجهول، والإحاطة بحقيقته بغض النظر عن التعريفات الفنِّية للمعرفة، وما يفصل بينها وبين "الحلم" في أنظارهم. وأما الخلاص فيتحقق للإنسان بالاطمئنان بأنه لن يعذب في الآخرة بل سينعم ويُدخَل الجنة.

وبشيء من التساهل يمكن حصر أنشطة الإنسان كلها في الوصول إلى هذين الهدفين. فالدين يستهدف تحقيق مقصودين اثنين. الأول بناء وتنظيم علاقة الإنسان بالله تعالى. ويبدو ذلك واضحا في العقيدة والعبادات. والثاني تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ويظهر ذلك بجلاء في النظام الأخلاقي ونظام المعاملات، وكذلك في نظم العلاقات السلمية والحربية وما إليها عند تأسيس المجتمعات. وتختلف أساليب الناس ووسائلهم في الوصول إلى كل من هذين الهدفين أو كليهما. والوحي الإلهي الذي يحمله النصّ الدينيُّ الموحَى أهم ما يشد الإنسان إليه أنه يقدم –بيسر وسهولة مع اليقين التام بصدقه– خارطة دقيقة وأصولا ومصادر تعين الإنسان على الوصول إلى هذين الهدفين معا. فهو يقدم معرفة، ويقدم سبيلا للخلاص في الوقت ذاته. ولكن الناس يختلفون في فهمهم للنص، ونتيجة لذلك الاختلاف في الفهم أو في طرق التعامل قد تختلف سبلهم في النظر إلى المعرفة أو إلى طريق الخلاص.

والصوفي لا يختلف عن غيره من حيث كونه باحثا عن سبيل المعرفة وعن سبيل الخلاص. فما هو التصوف ومن هو الصوفي؟ هذا ما سنحاول استجلاءه –في هذا العدد من المجلة وفي أعداد قادمة– مدركين الصعوبات الكثيرة التي تعترض سبيل من يسعى لجلاء حقائق متشابكة متداخلة لا تنتمي إلى حقل معرفي واحد واضح الموضوع، محدد المسائل والقواعد منضبط المصادر بيِّن الأهداف. فالتصوف في إطاره المعرفيّ خاصّة تتداخل فيه وتزدحم عليه علوم التوحيد والعقائد والفقه والسنّة والسيرة والبدعة والأخلاق والنفس وقواعد السلوك والإمامة والسياسة والجهاد والعلاقة مع الآخر والفرديّة والجماعيّة والعزلة والانفراد والاختلاط والانتماء ونحوها.

فإذا تجاوزنا الجانب المعرفي إلى الجانب العملي وجدنا الأمر أكثر تعقيدا، إذ إنّك تجد في كل فترات التاريخ الإسلامي منذ القرن الثاني حتى يومنا هذا مواقف للصوفية أنفسهم، ومواقف منهم تتراوح بين قليل من مواقف القصد وكثير من مواقف التطرُّف. فمرة تجد الصوفية ذخيرة هامة من ذخائر الأمة تمارس بعض مجموعاتها عمليات الجهاد والدفاع المشرِّف عن مقدرات الأمة في الداخل والخارج، كما حدث لمدارس الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومن سبقه وكثير ممن لحقه، حيث كانت مدارس هؤلاء مدارس علمٍ وساحات تدريب لإعداد شباب الأمة للتصدي لأعدائها. تجد ذلك بارزا في كثير من حركات المقاومة والجهاد في عهود الفرنجة والتتار. وأحيانا تجدهم دعاة سائحين في الأرض ينشرون الإسلام في كل صقع أو ربْع يستطيعون الوصول إليه. وفي بعض الأحيان وبعض الأصقاع تراهم دعاة عزلة وتواكل وتخاذل واستسلام، بل دعاة ترحيب بالغازي والمعتدي باعتباره جزءا من قدر الله أو ممثلا له في تذكير الناس بما فرطوا وأسرفوا ليعودوا إلى الله. ومرة تجدهم يتقدمون الصفوف في الأزمات ليعينوا الأمة على مواجهتها، وتجدهم أحيانا أخرى قابعين في الزوايا والتكايا مستسلمين. ولذلك كان من الصعب على الباحث أن يقول في ذلك كله الكلمة السواء. ولعل من الإنصاف أن نقول: إن الصوفية فصيل من فصائل الأمة يرشد برشدها ويغوى بغوائها؛ فهم كما قال دريد بن الصمِّة:

وَهَلْ أنا إلاّ مِنْ غُزَيَةَ إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإن ترشُدْ غُزَيّةُ أرشدِ

فليس من العدل تحميلهم وحدهم مسؤولية الانحرافات الخطيرة التي حدثت في فكر الأمة. وليس من الإنصاف إنكار أيادي بعضهم البيضاء في نشر الإسلام في آسيا وإفريقيا وكثير من المناطق النائية آنذاك. ولكن التاريخ الحافل لهذه الأمة يلقي على كواهل الباحثين أعباءا كثيرة وهم يحاولون الميز بين الإيجابي والسلبي من ذلك كله.

إن محاولة الوصول إلى تحديد منهاجي دقيق لمحاور القرآن الأساسية تصلح أن تكون أعمدة كبرى تدور حولها محاوره الأخرى بحيث يمكن اتخاذها منهاجا قرآنيا لمراجعة التراث والتصديق عليه، مكنتنا من تمييز ثلاثة محاور هي: التوحيد، والتزكية، والعمران. ولا شك في أنّ الحديث عن التزكية يقود إلى التصوف باعتبار أنّ التزكية هدفه وعموده وأساسه وأهم محاوره.

والتعمق في دراسة التصوف وبيان نسبته إلى الوسائل القرآنية لتحقيق التزكية يضعنا أمام مسرحٍ تلاقت على ساحته الأفكار والعقائد والأديان التي وجدت في الشرق القديم لتقدم أشكالا متنوعة من الخبرة الدينية في إطار محاولات أفرادٍ وجماعات الوصول إلى سبيل الخلاص بطريق مجاهدة النفس، لتحقيق التطهر النفسي والتزكية القلبية.

ولقد ابتلي تاريخ المعارف والعلوم من وقتٍ مبكر في تاريخنا بانقسام المؤرخين للمعارف في الإسلام إلى فريقين. الفريق الأول يعتبر أن كل ما انتجه المسلمون قد اقتبسوه من حضارات وثقافات أخرى، وأن كل ذلك ناجمٌ عن الاحتكاك بالآخرين والتأثُّر بهم. فالمسلمون في نظر هؤلاء مجرد نقلة ومترجمين. وهذه مقولة أشاعها الاستشراق الغربي وتبنتها بعض التيارات الفكرية الإسلامية التي لا تستطيع النظر -لا بالبصر ولا بالبصيرة- إلا بنظارات غربية. "فأصول الفقه" مثلا اعتبر علما مقتبسا من الإغريق؛ وقيل إنّ الإمام الشافعي كان يتقن اللغة اليونانية فساعده ذلك على الاطلاع على أصول القوانين، فبنى أصول الفقه الإسلامي عليها وعلى ما استفاده من التراث اليوناني؛ وقيل إنّ الفقه نفسه متأثر بالقانون الروماني، وإنّ الإسناد في الحديث اعتبروه امتداد للتراث العربي الجاهلي، فالعرب كانوا يحرصون على حفظ وضبط أنسابهم وشعرهم وأنساب خيولهم وكلامهم، فأخذ علماء الرجال من ذلك علوم الإسناد أو مما ورثوه عن العرب منها وبنوا عليه مطوِّرين ومغيرين في موضوعات الإسناد أو علم الرجال. وكذلك الفلسفة والمنطق والعلوم التي تُعرف اليوم بالعلوم البحتة. ولم يكن التصوف بدعا أو استثناءا من تلك القاعدة. ولذلك فقد ذهب كثير من الكاتبين في التصوف لدى المسلمين تاريخا ونشأة وأصولا وتطورا إلى نسبته إلى العوامل الخارجية، والانفتاح على تراث الآخرين والمثاقفة معهم. فهو في نظرهم من جملة العلوم الطارئة أو المنقولة إلى الساحة الإسلامية من جهات مختلفة.

أما الفريق الثاني فقد ذهب إلى أن جميع العلوم التي حفلت بها البيئة الفكرية والمعرفية والثقافية الإسلامية هي علومٌ إسلامية لا تأثير لأيّ عاملٍ خارجي في نشأتها أو بنائها وتطورها وأنها جميعا قد تم استنباطها من الكتاب والسنة. وهؤلاء ربطوا التصوف برسول الله صلوات الله عليه وعلى اله وسلم، فهو الذي كان يصبر على الجوع، ولم يكن يستكثر من الدنيا لا قبل أن تُفتح عليه ولا بعد ذلك حينما كان

الذهب يُصب ويكدس في مسجده عليه الصلاة والسلام، فيقسمه بين الناس حتى لا يبقى لديه منه شيء. كما ربطوا التصوف بخلفائه وكبار أصحابه وبعض آل بيته الذين استَنوا بسنته عليه الصلاة والسلام. إذ إنّ التصوف أو سلوك هذا السبيل يُعد ثمرة للالتزام بشكر الله تعالى والزهد في الدنيا، وكلاهما كانا من سنن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد كان من هديه –الشكر والصبر والزهد.

والحق أن المعارف والعلوم لا تخضع لعملية الولادات المفاجئة وما كان لها أن تكون كذلك. وما يجري تحديده أحيانا باعتباره تاريخ ولادةٍ ومكانِ وضع لعلمٍ ما، هي أمور تلاحظ فيها قضايا كثيرة جدا، لسنا معنيين بتوضيحها أو معالجتها في هذه العجالة.

ولذلك فإن المسلمين قد نحوا بالتصوف منحيين: الأول هو التزكية التي جاء القرآن المجيد بقواعدها كلها، ومارسها رسول الله صلّى الله عليه وعلى اله وسلم؛ فكان عبدا شكورا، وكان رسولا زاهدا في الحياة الدنيا وزينتها، لا يمدّ عينيه إلى متعها وزهرتها مما جعلها في يده وأخرجها من قلبه الطاهر النقي؛ فكان زهده عليه صلوات الله وسلامه أساسا لحركة زهدٍ منظمة، مارسها معه ومن بعده كثيرون من أصحابه وآل بيته. فصنعوا الحياة ولكنهم لم يُستغرَقوا فيها ولم تشغلهم عن ربهم ولا عن آخرتهم ولم يسمحوا لها بذلك، بل جعلوها ميدانا للتزود بمتطلبات الدار الآخرة ولقاء الله تبارك وتعالى.

الثاني هو المنحى الفلسفي الذي ينضم به المتصوفة المسلمون إلى تلك المجموعات التي مارست أمورا عديدة وتجارب روحية متعددة وضعت تراثا ثريا مشتركا تعلم منه من يريد أن يتعلم كيف يبلغ مستوى السمو الروحي، والنقاء النفسي. وهذا النوع من التصوف —وهو الشائع في الغرب اليوم– تصوف ذو نزوع فلسفي خالص ضم أشتاتا من الثقافات الأجنبية التي دخلت الساحة الفكرية الإسلامية في مركب حركة الترجمة والاحتكاك المباشر بالأديان والفلسفات القديمة التي احتك الإسلام بها في البلاد المفتوحة.

إننا بهذا لا نحاول أن نضع خطوطا فاصلة أو نبني جدرا بين الاتجاهين. ولكننا نريد أن نتبيّن ما وقع في البداية لأن ذلك سوف يساعدنا على فهم كثير من الظواهر التي برزت فيما بعد وأدت إلى مواقف متطرفة وأقوال لم تخل من شطط، سواءٌ أكانت مع التصوف أو ضده. بل بلغت حد الرمي والإفتاء بإقامة حدّ الردّة ضد هذا أو ذاك من الصوفية، خاصة المتفلسفين منهم أو من يُطلق عليهم بعض الكاتبين "المتألهِين." وكثيرا

ما نجد في تراجم هؤلاء الأعلام من يسمى بالشيخ العارف أو القطب الرباني، والهيكل الصمداني، وفي الوقت ذاته يسميه مخالفوه بالمبتدع أو المتزندق أو المرتد، الذي يمارس الهرطقة أو نحو ذلك. وحين نهض بعض العلماء في تقسيم التصوف إلى سنيّ وبدعيّ لعلهم يعيدون الأمر إلى نصابه لم يؤد ذلك إلى حسم الجدل في القضايا المعروضة، وبقي الخلاف ناشبا وبقيت الأسئلة مثارة.

فما حقيقة التصوف؟ وكيف نشأ؟ ولِمَ نشأ؟ وما نصيب القرآن الكريم في تكوين بذوره الأولى؟ وما نصيب السنّة النبويّة والسيرة العطرة في بنيته الأساسية؟ وكيف نستطيع أن نرسم خطوط الاستقامة والاعتدال والاختلاط والميل في مسيرته؟ وما الموقف منه الآن في ظل طغيان المادة والشهوات وضمور النفس المطمئنة وانكشافها؟ وما السبيل لتنقية مواريثه من النزعات الهدميّة والعبثيّة والجبريّة والتواكل وتسديد عرفانياته ليكون ناتجها محكوما بضوابط المنهجية الإسلامية والرؤية الإسلامية الكُلية، والنموذج المعرفي الإسلامي، والتأصيل لأعمال القلوب ومشاهداتها وضبط ذلك بضوابط القرآن المجيد، وإنارة طريق السالكين بالسنة النبويّة والسيرة المشرّفة ليصبح التصّوف منضبطا بضوابط التزكية التي هي إحدى القيم القرآنية الحاكمة العليا الثلاثة.

ولعلنا نسارع إلى القول بأن تجاوز "الرؤية القرآنية" الدقيقة المتوازنة للحياة الدنيا، أو إسقاط تراث الأمم السابقة عليها قد أدى إلى بروز ظواهر سلبية سادت في تلك القرون المتقدمة لعل أبرزها التوجه نحو الخلاص الفردي وتجاوز مهام الخلاص الإنساني، ثم الرغبة بالعزلة، وتجاهل الشأن العام، وهو توجه تختلط فيه الخطوط وتتشابك بين الإنجاز في الحياة الدنيا، والحساب في الآخرة.

كما سادت فكرة تحجيم الرغبات والدوافع والحد منها مما أثر في إيقاف حركة الكشف العلمي أو إضعافها على الأقل؛ لأن ذلك —كله– قد أخرج من دائرة العلم الأخروي المقرب إلى الله. وقد نتج عن ذلك تأخير النهضة العلمية، والثورة الصناعية لتستحوذ أوربا بعد ذلك على سائر أسبابها، وتقوم بتفجر الثورات المتتابعة التي أدت إلى وضع الأمة المسلمة في مؤخرة الأمم الآن. وإذا توهم قادة تلك الرؤى في تاريخنا أنهم بالعزلة والإنصراف عن بناء الحياة الدنيا يحفظون لنا ديننا فها نحن نواجه عمليات تغيير قسرى أو شبه قسرى لكثير من أركان إيماننا وإسلامنا. ولذلك فإننا أحوج ما نكون إلى إعادة قراءة تراثنا —كله– قراءة فاحصة وفقا للرؤية القرآنية ليهمن القرآن المجيد من جديد على ذلك —كله– ويصدق عليه.

وفي هذه الأيام وفي غمرة انشغال الأمة الإسلامية بكثير من الأحداث العاصفة والقضايا الملتهبة، وفي زخم الضربات المتتالية التي تُكال في قلب الأمة وأنحاء جسدها وأطرافها، ومع توالي التجارب والمحاولات الفاشلة لإحداث أي تقدم اجتماعي أو تطور سياسي أو تنمية اقتصادية...

في هذه الأجواء يشعر بعض الناس باليأس والإحباط، وتضيع آمالهم في أي تطور إيجابي في المدى المنظور، فلا يرون قيمة لأي عمل يسهمون فيه في إنقاذ الأمة، ويلجأون إلى مقولة "اللّهُمّ نفسي" بوصفها خط الدفاع الأخير. وليس من المستغرب أن يجد هؤلاء نماذج في تاريخ المسلمين يفسرون به حكمة اختيارهم، وأن يجدوا في واقع المسلمين المعاصر نماذج من شخصيات وتوجهات تبعد نفسها عن بؤرة الصراع القائم، والقضايا الملتهبة لعلها توفر على نفسها نتائج التدافع والمغالبة من صور الابتلاء والمعاناة!

ومما يلفت النظر أن ظاهرة التصوف بمعنى التوجه نحو الانسحاب من معارك الحياة في صورها الفكرية والنظرية أو الميدانية والعملية، قد أخذت في السنوات الأخيرة تتسع وتنمو، وأصبحت موضع تشجيع ودعم من جهات سياسية ومالية من داخل البلدان الإسلامية ومن خارجها. إضافة إلى أنها أصبحت موضوع اهتمام البحوث والدراسات وبخاصة في الجامعات الأجنبية؛ الأمر الذي يخلط أوراق ظاهرة التصوف ويجعل موضوعها أكثر تعقيدا من مجرد كون التصوف اختيارا لصورة من صور التدين الذي كان له في تاريخنا مفاهيم وتوجهات متعددة وكان لبعضها آثارٌ إيجابية عميقة.

من هنا جاءت دعوة العلماء والمفكرين والباحثين إلى الكتابة في محاور هذا الموضوع، لعلها أن تقدم مجموعة من الدراسات التحليلية النقدية التي توضح أبعاد الموضوع، وتنير جوانبه، وتقدم رؤية معرفية كلية حوله، تعين الأمة على تجديد طاقتها وتصفية رؤيتها ومواجهة تحدياتها وتخطي أزماتها.

وقد اقترحت بطاقة الدعوة إلى الكتابة المحاور الآتية:

1. صور التصوف في واقع المسلمين المعاصر: تصنيف الطرق والحركات الصوفية وفق معايير مناسبة توضح خصائصها.

2. طبيعة الخطاب الصوفي المعاصر وخصائصه.

3. معالم الشخصية الصوفية.

4. تحليل الأبعاد النفسية في ظاهرة التصوف: طبيعة الأشخاص الذي ينجذبون إلى التصوف أكثر من غيرهم، الحالات النفسية التي ربما تكون سبب التوجه الصوفي، طبيعة العائد النفسي للممارسة الصوفية.

5. موقع الشيخ في النظام الصوفي، وموقع المريد.

6. التصوف في الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية.

7. التصوف والاستخلاف: دراسة مقارنة.

8. التصوف والزهد: دراسة مقارنة.

9. دراسات حالة وتجارب متعمقة في الوسط الصوفي.

10. التصوف في العقل الفقهي الإسلامي.

11. التصوف الفلسفي والكلامي عند المسلمين.

12. التصوف عند من لم يُعرفوا به (ابن تيمية، ابن خلدون...الخ).

13. جاذبية التصوف الإسلامي عند فئات خاصة منها على سبيل المثال: المسلمون الجدد في الغرب، في البيئات الغنية، في البيئات الفقيرة، في البيئات الجاهلة.. الخ

14. التصوف في الفلسفة: دراسة للتصوف في الفلسفات المختلفة.

15. النزعات الوجدانية والتربية الروحية في أدبيات حركات الإصلاح الإسلامي الحديث.

16. الطرق الصوفية وحركات التحرير في التاريخ الإسلامي الحديث.

17. التطرف في التصوف: ظاهرة إنسانية تشمل الأديان عموما.

والبحوث التي يتضمنها هذا العدد هي مما قبلته إدارة تحرير المجلة للنشر حتى هذه اللحظة، ولا يزال عدد من البحوث التي وصلت في مراحل التحكيم والمراجعة، وستبقى الدعوة مفتوحة لمواصلة البحث واستكمال تغطية المحاور السابقة التي نأمل أن تحتل موقعها في عدد آخر من أعداد المجلة في المستقبل القريب بإذن الله، وعلى الله قصد السبيل.